ISSN: 2773-3718
ELMUNTAQA for Research and Studies
E-ISSN:2800-146X
المنتقى للبحوث والدراسات

المجلد:03. العدد: التسلسلي: 05 جوان 2022 ص ص: 97-117

طبنة العتيقة

من الإزدهار إلى الذبول والاندثار.

.The antiquity Tamena from bloom to melt and die

نورالدين بن قويدر (1)
جامعة باتنة01.الجزائر
bn28dz@gmail.com

تاريخ الارسال: 2022/01/25 **تاريخ القبول: 2022/03/06**

ملخص:

طبنة مدينة أثرية عريقة تقع في إقليم بريكة، وهي إحدى الحواضر الجزائرية التي صنعت التاريخ في بلاد المغرب الاسلامي خلال العصرين القديم والوسيط، ورغم محاولات بعض المؤرخين والأثريين إماطة اللثام عن تاريخها، إلاّ أنّ ذلك لم يكن كافيا، حيث أدركت الحاضرة النسيان والتهميش فاق الثلاثة عقود، في حين أنّ المدينة منذ ميلادها أواخر القرن الأول قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثالث عشر ميلادي استمرت في دورها المتميز والمؤثر، والتساؤل المطروح: ما طبيعة الدور الذي تفردت به؟

وما هي الخصائص والمقومات التي أهلتها في ذلك؟ و بم نفسر فترات الازدهار و الذبول التي أدركتها الحاضرة؟

لذا فالهدف من هذه الورقة البحثية هو توجيه الكتابات التاريخية والبحث الأثري نحوها والتعريف بهذه الحاضرة التي تحولت من منشأة عسكرية رومانية إلى حاضرة إقليم الزّاب وعاصمة بلاد المغرب الإسلامي، وإنقاذها من خطر الاندثار، فتقبر معه المعرفة العلمية والحقيقة التاريخية.

الكلمات المفتاحية:

البيئة، الأغالبة، إقليم الزّاب، الهجرات الهلالية.

Abstract:

Tamena is an ancient archaeological city located in the province of Brica, one of the Algerian cities that made history in the country of the Islamic Maghreb during the ancient and medieval times. Despite the attempts of some historians and antiquarians to shed light on its history, this was not enough. The present realized that it had been forgotten and marginalized for over three decades, while the city from its birth in the late 1st century BC until the late 13th century continued of the 13th century. What characteristics and features did you qualify for that?

And what do we explain the periods of prosperity and melancholy that you realized here? The purpose of this research paper is to guide historical literature and archaeological research towards it and to publicize this present, which has been transformed from a Romanian military establishment to a presence in the territory of Al Zaab and the capital of the Islamic Maghreb.

Keywords:

Tamena; The environment, the majority, the territory of the parties, the hilly migrations

1- المؤلف المرسل

-المقدمة:

لقد تضاؤل إهتمام الباحثين بمدينة طبنة وانحصرت الدراسات والكتابات التاريخية والأثرية حولها، إن لم نقل إنقطاعها ،حيث اقتصر الجهد والبحث على إعادة ما كتب عنها بنوع من الإجترار البحثي ، ما جعل المادة التاريخية ضئيلة وغير متقدمة مقارنة بدراسات أخرى، فكيف لحاضرة مثلها تعاني النسيان؟، وهي المدينة الجامعة لآثار مادية وتاريخية وشاهدة على حضارات وأقوام متعاقبة ، فالمدينة تمسح قرابة 590 هكتار، أي تزيد عن مساحة مدينة تيمقاد بـ 07 مرات وعن مدينة جميلة بـ 12 مرة، والهدف من هذه الورقة البحثية هي محاولة إبراز الأحداث التي عرفتها طبنة والنخبة التي أنجبتها وكنوزها الأثرية التي تعاني تهميشا فاق الثلاثة عقود مما يقبر الحقيقة التاريخية ،فهل يمكن جمع مادة تاريخية تبرز دورها وتؤكد تأصيلها التاريخي والتراكم الحضاري والمساهمة في التاريخ والحضارة الإنسانية ،و تنشيط البحث التاريخي والأثري بشأن مثل هذه الحواضر في البلاد .

1- طبنة بين التأصيل التاريخي وتفاعل الانسان بالبيئة

عرفت طبنة قديما باسم "Thubunae"وكانت آنذاك منشأة عسكرية رومانية بنيت في مطلع القرن الثاني الميلادي، وورد إسمها أول مرة في النصوص القديمة عند بلينوس الأكبر"PLine L'ancien" في مؤلفه التاريخي الطبيعي "Histoire Naturel" تحت إسم "Tuben Oppidum"،ولفظة "Oppidum" تعني وصف المواقع المحصنة ويرجح أنّه تمّ تحويل التسمية منها إلى العربية "طبنة".لذا فالمصادر القديمة تتفق على أنّها مدينة رومانية قديمة في بلاد نوميديا ،في حين أنّ "بطليموس يشير إلى وقوع هذه المدينة في موريطانيا القيصرية وربما كانت مدينة أخرى ويستبعد أن تكون نفسها نظرا للبعد الجغرافي. أما " تيبوني " فهي تسمية أثناء الاحتلال الروماني لنوميديا حتى خروج البيزنطيين من بلاد المغرب وسميت بـ"العباسية" في عهد الفتح وقد اعتمدها الرومان كقاعدة لإخماد ثورات قبائل الأوراس ويذكر القديس" سانت أوغسطين" أثناء زيارته طبنة النجاحات التي أحرزها "بونيفاس"قبل أن يصبح واليا على مقاطعة إفريقية. وما يلاحظ أنّ طبنة في العهد النوميدي كانت جزء من الحضنة والتي بدورها هي جزء جغرافي وإداري من نوميديا

التي قسمت إلى ماسيسيليا وماسيليا في إطار سياسة الرومنة القائمة على التجزئة، رغم محاولات الوحدة أيام ماسينيسا[1]. أما تسمية الزّاب فهي مشرقية عوضت الإسم القديم المعروف بـ:"إقليم نوميديا" ثم انحصرت التسمية على الواحات الجنوبية. إنّ بيئة "طبنة "هي امتداد طبيعي مترامي الأطراف للحواضر الأخرى الداخلية والواقعة في شمال إفريقية ،وقد وقعت طبنة جغرافيا إلى الجنوب من مدينة بريكة (حاليا) وتبعد عنها بحوالي 04 كلم ،وانحصرت بين طريقي بسكرة وامدوكال ، مما سمح لها ملامسة مدينة بيطام، بل شكّلت امتدادها الطبيعي والإداري ،وكل هذا الامتداد الجغرافي بدوره يمثل جزءا من ولاية باتنة.[2] و لأنّ طبنة تنتمي إلى منطقة الحضنة فإنّها تحمل نفس الخصائص الطبيعية تقريبا ، حيث تنخفض طبنة بانخفاض منطقة الحضنة، و يحيط بها حزام جبلي في شكل قوس ،والحضنة بمثابة الحاضنة الطبيعية لطبنة و تعد همزة وصل بين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي ، وتقع الحضنة في المناطق الداخلية وأسفل السهول العليا القسنطينية التي تراوح ارتفاعها ما بين 800-1200م .وتطل السهول العليا الجزائرية على الحضنة (طبنة) بجرف كبيرمن الشمال يمتد من بوسعادة وينحدر ببطء نحو الحضنة بسهل طميّ لواد اللحم، وفي الجنوب الغربي تحد الحضنة جبال بوسعادة التي تنتهي بجبال أولاد نايل، كما يحدها من الجنوب الشرقي كتل صغيرة لسلسلة الزّاب.[3]، و يصل طول منطقة الحضنة من الشرق إلى الغرب إلى 140كلم و من الشمال إلى الجنوب 80 كلم عرضا، و يحدها من الشمال جبال الحضنة، و من الشرق جبال باتنة والأوراس، و من الجنوب جبال الزّاب، و من الجنوب الغربي جبال أولاد نايل، ومن الغرب جبال أولاد سيدي إبراهيم .[4]ونظرًا لأنّ إقليم الزّاب الحالي يطلق على المنطقة الممتدة جنوب الأوراس و حول بسكرة ،حيث السباسب و الواحات ، لذا فأنّ طبنة حضنية البيئة وهي من المدن الشقيقة لمسيلة ومقرة. وتبعد بـ04 كلم جنوب غرب برج بريكة ،وانحصرت بين وادي بريكة في الشمال ووادي بيطام في الجنوب [5]،أما فلكيا فوقعت بين خطي طول 2°- 4° شرقا وبين دائرتي عرض 35° -37°شمالا [6]. وتكمن أهمية موقعه الاستراتيجي في المظاهر التالية: -اتصالها بالمدن والحواضر المجاورة بواسطة الطرق الرومانية المعهودة و التي استخدمت في الفترة الإسلامية [7] .

-وقوعها على الطريق الواصل بين بريكة و نقاوس من الجهة الشرقية الشمالية حيث لا يفصل المدينتين سوى 37 كلم (25 ميل).

-جاءت في الطريق الرابط بين بريكة وسفيان والذي قارب 16ميل.

-مثلت نقطة إنطلاق الطريق الرباط بين بريكة والقنطرة (حوالي 42 كلم).
-شكلت همزة وصل في الطريق الرابط بين بريكة وامدوكال على امتداد حوالي 34 كلم في الناحية الجنوبية الغربية [8] .

ومن الناحية المرفولوجيوية فيمكن أن نتعرف على الملامح التالية:

- الطابع السهلي حيث تتخلل طبنة سهول واسعة بإمتداد بضعة كيلومترات، يجري بها واديان هما: وادي بريكة جنوبا ووادي بيطام شمالا مما جعلها نواة للإنتاج الزراعي النباتي والحيواني ومصدر رخاء.
- وفرة المياه رغم طابعها الصحراوي [9] بسبب التساقط(أمطار ،البرد) والأودية التلية والآبارالكثرة.
- كثرة البساتين و تنوع المحاصيل الزراعية مثل القمح والحنطة والشعير [10] كما تزرع بها جميع الحبوب الأخرى وبكثرة [11]، وساعدها في ذلك توفرها على شبكة من الأقنية الموروثة من الفترة القديمة فضلا عن سدود تخزين المياه للري [12].
- جودة الهواء ما جعلها في مأمن من الأمراض والأوبئة،أما تربتها فهي خصبة وغنية وهذا يفسرتنوع إنتاجها النباتي والحيواني[13].
- إنّ تكوّنها من أراضي صخرية تعلوها طبقة رقيقة رملية ، جعل الأمطار لا تخترق الأرض بل تسيل فوق سطحها ثم تنتهي في سبخة الحضنة وغيرها من السباخ لتتبخر فيما بعد ، مما دفع الرومان لإقامة الصهاريج و السدود لوقايتها من التبخر [14] .

- وعليه فإنّ طبنة قد توفرت على عناصر حيوية مثل وفرة المياه وجودة الهواء وخصوبة التربة وامتداد المراعي وهي شروط جيدة لازدهار المدينة وإعمارها.

في حين أنّ طبنة من الناحية المناخية ونظرا لامتدادها وراء السلاسل التلية ومشارف الصحراء ، مما جعلها عرضة للمؤثرات الحارة حيث يرتفع المدى الحراري

لما يقارب 22°، وترتب عنه وجود مناخ لا يعتبر مناخا صحراويا ولا رطبا، فهي مناخ انتقالي بين الرطب و الحار في حين تعرف المنطقة برياح متعددة الاتجاهات فبعضها جافة (القبلية) و بعضها رطبة(البحرية) .وقد صنّفها الجغرافيون القدماء ضمن إقليم الزّاب ،فهي مدينة وعاصمة كبرى نافست القيروان وغيرها من حواضر شمال إفريقيا ،وقد سماها اليعقوبي بمدينة الزّاب العظمى [15] أما الجغرافيون المحدثون فيعتبرونها مدينة شط الحضنة ،و بهذا فهي زهرة مدائن الحضنة وإقليم الزّاب معًا،وهذا ما يذهب إليه إبن خلدون [16] . وتتخلل طبنة سهول واسعة تمتد إلى بضعة كيلومترات، وينساب على طرفيها واديان هما ،واد بريكة جنوبا ووادي بيطام شمال. وصفها الجغرافيون المسلمون القدماء مثل "اليعقوبي" بعد زيارته لبلاد المغرب في القرن3 الهجري/9 الميلادي بأنّها مأهولة بالسكان والذين هم أخلاط من العرب والعجم والروم والبربر[17]، أما أبوعبد الله البكري الذي زار إفريقية في القرن 4الهجري/10الميلادي، فوصفها بأنّها مدينة عظيمة كثيرة المياه والبساتين والزرع والقطن والنطة والكتان كما تتوفر على ثروة معتبرة من الأبقار والأغنام[18] وقد بلغت المدينة في العصر الحمادي شأناً كبيراً من التطور الاقتصادي والاجتماعي، حيث كان بها قصور وجوامع وصهاريج كثيرة لري الباستين. كما تميزت تجارتها الداخلية بالرواج نظرا لكثرة أسواقها،التي لاتدانيها في الدور أسواق القيروان وسجلماسة [19]، وقد إشتهرت "طبنة" في المجال الزراعي بمونتجاتها المتنوعة ...وعرفت نشوء كثير من الصناعات[20] التي كانت منتشرة في سائر المدن الإسلامية ببلاد الزّاب خلال العصور الوسطى. ويتفق الرحالة والجغرافيون على القول :"أنّ طبنة مدينة متطورة العمران "،فهي من أهم حواضر المغرب الإسلامي في العصور الوسطى ،وقد حلّ بها الخراب والانحطاط في عهد ابن حوقل " أوخر القرن 12م وبداية القرن القرن 13م " ، وأصبح أهلها مشردين،[21] بسب الفتن والتطاحن والاضمحلال ،حيث صارت مجموعة من الأنقاض والأكوام والرسوم كأنّها لم تكن في الماضي.

2. أدوار طبنة عبر العصور:

2.1 قبل الفتح الإسلامي

شهدت طبنة نهضة عمرانية قبل الفتح الإسلامي كمدينة عسكرية أنشأها الرومان في عهد الإمبراطور" تريانوس" تجلت في بناء منشآت دينية ومدنية ، وتوفرت على مباني ومكتبات وأقواس النصر وحمامات وأسواق وساحات ومسارح ومراكز

الأسقفية (250م)وقد برز دورها الديني بشكل أساسي حتى أنّه كانت ممثلة في المجمع الديني بقرطاجة سنة 484م، مما سمح بانتشار المسيحية في الحضنة برمتها [22]،هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ موقعها الحيوي أهّلها لأن تكون في العهد الامبراطوري الروماني مركزا اقتصاديا لحدود موريطانيا القيصرية وبلاد الحضنة.

أما دورها العسكري فبرز كقاعدة من بين القواعد العسكرية المتقدمة ومركزا كبيرا للاستيطان وبها كانت الإقامة الدائمة لحاكم إفريقية(417م) القائد "بونيفاس" وهذا ما يدل على أنّها ذات أهمية بالغة من الناحية المدنية والعسكرية.

في حين دورها المدني والعلمي والثقافي ظهر كموطن مفضل جلب إليها رجال الفكر والدين والتجار والحرفيين والمزارعين[23]، الأمر الذي يفسر كثرة سكانها وانتشار منشآتها وعمرانها.

وبعد موت قسطنطين الأكبر اجتاحت الإمبراطورية الرومانية إضطرابات سياسية و خلافات دينية أنذرت بإنهيار روما، وقررت روما عزل " بونيفاس" ولما شعر بالخطر استنجد بالوندال مقابل تنازله عن ممتلكاته غرب المملكة الرومانية، لذا عبر الوندال البحر بقيادة جنسريق سنة 429 م (80 ألف) واكتسح الوندال سواحل إفريقية دون دواخلها وحاول البربر استرجاعها ،فتضررت طبنة من حركات البربر وإغارتهم على حصونها .و لم تسترجع مدينة طبنة إلا بعد مجيء البيزنطيين بقيادة الامبراطور جوستينيان الأول إلى بلاد المغرب عام 533م،وأعادو التحصينات الرومانية من جديد (540 م) لتواصل أدوارها الحيوية خاصة من الجانب العسكري.

وفي العهد الوندالي أصبحت منطقة تجمع سكاني كبرى، ومنفى للعناصر المناوئة والثائرة على الوندال مما أضر بها وباستقرارها [24]، وعليه فأنّ فترتي الرومان والوندال عرفت المنطقة تخريبا حتى وصل الدمار أيام جوستينيان إلى درجة أنّ المسافر يتجول أياما عدة في بعض نواحيها ولا يصادف نفسا بشرية [25] أما أيام البيزنطيين (عهد جوستينيان) فقد أعادوا بناء التحصينات التي خربها الوندال من بجاية إلى قفصة مرورا بسطيف و طبنة ، و هكذا فإنّ طبنة كانت حامية في فترة الحكم البيزنطي فأقيم بها القلاع والحاميات.

2.2. طبنة بعد الفتح الإسلامي

غداة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب أقام عقبة بن نافع في طبنة خلال عودته من طنجة وسرّح الجيش المحمل بالغنائم إلى القيروان قبل أن يتحرك رفقة من معه من الجند إلى مكان قرب تهودة بنواحي بسكرة أين لقي حتفه،وأعاد فتحها موسى بن نصير سنة81هـ ،وبسبب الثورات المتتالية للأمازيغ عمد ولاة إفريقية إلى تحصين مدينة طبنة وإقامة الأسوار عليها لتصبح الدرع الواقي لإقليم الزّاب وتحوّل الحصن البزنطي إلى حامية عسكرية للجند العرب وأصبحت المدينة نقطة تمركز للسلطة في غرب إفريقية .

ويبدو أنّ هجرة الخوارج في القرن الثاني الهجري وتسللهم إلى صفوف البربر قد مكنهم من تثبيت تعاليمهم المنادية بالمساواة بين العرب و البربر وألبوا السكان ضد عمال بني أمية مما مهد لقيام عدة ثورات إنتهت بموقعة الأشراف سنة 122هـ - 740م والتي انهزم فيها العرب [26]، و نظرا لأهمية طبنة فقد جعلها العرب حامية عسكرية لجندهم ومركزا للسلطة في غرب إفريقية . ولما تصاعدت ثورات الخوارج كانت فتنة قبلية في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (140هـ/757م)فهيأت هذه الثورات لسقوط القيروان في أيدي الخوارج ثم الإباضية فيما بعد وأصبحت إفريقية تحت سيطرة الخوارج، وبعد سقوط القيروان على يد الخوارج سنة 141هـ،أرسل الخليفة المنصور جيشا (40ألف جندي) بقيادة محمد بن الأشعث وبصحبة أحد قادة الجيش هو"الأغلب بن سالم التميمي" فكانت الهزيمة للإباضية وتمكن الأشعث من دخول القيروان وأعيد بسط النفوذ العباسي على المنطقة سنة144هـ/761م ،ثم أقرّ الوالي الأشعث بتعيين العمال على أقاليم إفريقية ،وأصبحت المدينة عاصمة بلاد المغرب ،ثم عاصمة لإقليم الزّاب، وعين الوالي محمد بن الأشعث الأغلب بن سالم التميمي واليا للمدينة عام 144هـ ،وبعد وفاته تم تعيين الوالي عمر بن حفص الذي أعاد ترميمها وبناءها سنة151هـ ليجعلها مركزا لحماية القيروان ،وكان لمدينة طبنة دور في تأسيس الدولة الأغلبية على يد إبراهيم بن الأغلب الطبني التميمي سنة 184هـ،وأكتسبت مدينة طبنة في حياته مكانة عظيمة ومثلت بعده أيام الوالي "حمزة بن السيال" ملاذا ينظم فيه أموره . وبعد سقوط

مدينة سطيف تبعه حصار المدينة من طرف جيش الدولة الفاطمية بقيادة أبوعبد الله الشيعي فاستعصى عليه الأمر لمدة سنة وفي أواخر ذي الحجة سنة 293هـ /أكتوبرسنة 906م ،إستولى أبوعبدالله على مدينة طبنة إحدى أكبر المدن الأغلبية بعد القيروان وعين عليها عاملا شيعيا هو يحي بن سليمان ونظرا للمقاومة وكون سكانها من قبيلة زناتة السنية ورفضهم الدعوة الشيعية مما استدعى الفاطميين إلى بناء مدينة المسيلة (المحمدية)كعاصمة للإقليم وبذلك تراجع دور طبنة فيما بعد حتى تأسيس الدولة الحمادية ووقعت المدينة ضمن مجالها الجغرافي.

وعليه فإنّ "الأغلب" جعل من طبنة مقرا له ولإقليم الزاب ، وأصبحت مركزا أساسيا لمقاومة الخارجين والثائرين على السلطة الشرعية في القيروان. وما يلفت النظر الصمت غير المبرر للباحثين في كتاباتهم حول دور طبنة في عهد الأغالبة خاصة أيام إبراهيم بن الأغلب وإن وجدت فهي شحيحة أوهي إشارات عابرة ومختزلة تقبر الحقيقة التاريخية،ومع ذلك فإنّ عهد إبراهيم بن الأغلب كانت فاتحة خير،إذ اكتسبت طبنة مكانة عظيمة، خاصة لو وضعنا في الحسبان بأنّه مؤسس الدولة الأغلبية ، وطبنة بدورها كانت المكان الذي أواه و قوّى نفوذه ورفعه إلى مراتب الولاية ثم عيّن على ولايتها أعز أصحابه حمزة بن السبال و تحولت طبنة الى قاعدة خلفية ، وفّرت طبنة للخلافة القوة والاحترام من خلال تحصيناتها ومواردها وقوة جيشها.

3. أشهر علماء طبنة ودورهم الثقافي في العصور الوسطى الإسلامية:

3.1. العهد الأغلبي

كان الأغالبة يشجعون العلماء ويساعدونهم على تلقي العلم وبثه بالتأليف والتدريس ،والهجرة إلى مراكز الثقافة بالمشرق للإستزادة في طلب العلم، والتخصص في شتى فروعه ،وقد إزدهرت الثقفة العربية والإسلامية مختلف في أقاليم الدولة وكان لتأسيس دار الحكمة برقادة على غرار نظيرتها العباسية ببغداد ،دورا في تقدم العلوم العقلية مثل الرياضيات والفلك والطب والجغرافيا ، واستقدام أمراء بني الأغلب الأساتذة من الشرق وكانوا من أبناء المنطقة وهم لا يقلون شهرة عن علماء الشرق. لقد كانت طبنة أهم دار للعلم ما بين القيروان وتيهرت.وكان الطبنيون

يزاولون تعليمهم الأولى بمسقط رأسهم ثم يذهبون إلى القيروان للاستزادة المعرفية والعلمية ، ومنها يرتحلون إلى المشرق قصد التعمق في الدراسة ثم يعودون إلى أوطانهم وهم مزودون برصيد من الثقافة العلمية النقلية والعقلية للتدريس في مدينتهم طبنة أو بإحدى حواضر الدولة الأغلبية. ويبدو أنّ بعضهم قد هاجروا إلى القيروان أو رقادة، أو سافروا إلى المشرق والأندلس،ومن أشهرهم إبراهيم بن الطبني والقاضي عياض وسحنون المالكي الطبنيين [27].

3.2. العهدين الفاطمي والحمادي

نبغ في العهدين أعلام من طبنة في الحديث والفقه والتفسير والقراءات واللغة والأدب ومن بين هؤلاء:

- أبومضر محمد بن حسين الطبني: المولود في طبنة،وانتقل إلى الأندلس سنة (325هـ/ 937م)، وكان من أشهر الخطباء والشعراء.
- على بن منصور الطبني: وقد كان أشهر علماء الحديث .
- أبو محمد القاسم بن علي بن معاوية بن الوليد الطبني: كان له إلمام كبير بعلم الحديث.
- أبوالفضل عطية بن علي بن الحسين بن يزيد الطبني: سافر إلى بغداد وبها سمع الحديث وكان شاعرا مجيدا.
- أبو مضر زيادة الله الطبني: عاش بالأندلس(قرطبة) واشتهر بـ الحديث، والتضلع في اللغة والأدب،وقول الطرائف ونظم الشعر.
- أبومروان عبدالملك بن زيادة الله الطبني: وهو عالم باللغة والحديث وشاعُر وأديب ،كان يعيش في قرطبة ورحل إلى المشرق والحجاز،ومات مقتولا بقرطبة سنة(457/هـ1065م).
- أبوالحسن عبدالرحمن وعبد العزيز: وهما أبناء أبي مضر زيادة الله،وإلى جانبها أبي مروان عبد الحميد[28].

ومما تقدم نستنتج أنّ طبنة ظلت طيلة الفترة الممتدة من العصر الأغلبي إلى غاية حلول العهد الحمادي عاصمة الزاب الكبرى ، أنجبت البيئة الطبنية في عصرها الذهبي ثلة من الأعلام في اللّغة والأدب، كما اشتهر علماؤها بنظم الشعر الجيد ،وبرعوا في العلوم الشرعية خاصة رواية الحديث وعلم القراءات ، فضلا عن الفقه الإسلامي ،وكان لهم الفضل في حماية المذهب المالكي أثناء الفترة الفاطمية الشعية .ومنهم من تقلد منصب القضاء في العهد الأغلبي وبعضهم مارس مهنة تأديب الأطفال وتعليمهم، ونظرا لتعرض طبنة للقمع زمن الشيعة الفاطميين والزحف الهلالي ، فضّلت الكثير من الأسر الهجرة إلى الأندلس أو مصر أو إلى بغداد والحجاز.

إنّ التراث الثقافي لهذه المدينة والذي أنتجه أعلامها في الفكر قد استفاد وعليه فالأولى هو الاعتراف بدورهم مثل غيرهم من العلماء في الحضارة العربية الإسلامية.

4. التطورات التي أثّرت في مدينة طبنة(العصورالوسطى):

عرفت طبنة بظهور الإسلام ودخول الفاتحين إلى ربوعها عهدا جديدا من المجد وصناعة التاريخ ،وقد تمّ فتح طبنة في أواخر القرن 1هـ/7م، في عهد موسى بن نصير،هذا الحدث البارز أصبحت هذه المدينة تحت حكم الولاة المسلمين ،وفي ظل الوضع الجديد تأثرت بأبرز الأحداث الإسلامية التي مرت بالمغرب ،حيث كانت عرضة للإضطرابات بفعل نشاط الخوارج والإباضية.ودرءا لأخطار المعارضة السياسية والمذهبية ،عمد عمر بن حفص المهلبي(العباسي)إلى إعادة بنائها سنة154هـ، وتحصينها بواسطة سور يحميها من إعتداءات البدو وغاراتهم المافجئة.وقد أثبتت دورها الاستراتيجي أثناء نشوب الأزمة بين دولة الخلافة العباسية والخوارج ، فتحصن بها عمر بن حفص فترة طويلة تحت حصار الخوارج وحلفائهم ، حتى رفع الحصار وتحقق الانتصار[29]. وقد اكتسبت مدينة طبنة بفضل صمودها ومقاومتها لتيار الخوارج شهرة كبيرة ومكانة هامة، واعتبرت في نظر أهل السنة والموالين للخلافة ، قلعة سياسة ومذهبية حصينة للدفاع عن السنة و وحدة الخلافة و جميع مسامي بلاد المغرب في إطار الإعتراف بالسيادة الشرعية للخلافة العباسية. فإبراهيم بن الأغلب وصل إلى ولاية القيروان وإفريقية بفضل

مساندة سكانها له،وبموافقة الخليفة العباسي هارون الرشيد أخذ أمراء بني الأغلب هذا الدور لطبنة بالحسبان،فاهتموا بها وقاموا بتحصينها وحشدوا لها الجند لحمايتها وأمنها ، وعينوا للإشراف على إدارة شؤونها مسؤولين أكفاء وأمناء، حتى أصبحت من أهم المراكز ولقد لعبت طبنة دورا في مقامة الزحف الشيعي والذود عن الدولة الأغلبية ونصرة أهل السنة ،قبل أن يقتحمها الشيعة عنوة ،وكانت بداية النهاية للنفوذ الأغلبي في إفريقية بعد الإنتصار الشيعي في معركة الأربس الحاسمة قرب الكاف بتونس 296هـ/909م. لقد ظلت طبنة محتفظة بأهميتها إلى أن أمر المهدي إبنه القائم ببناء مدينة جديدة في الزّاب والحضنة هي مدينة المسيلة(313هـ) ،وبدأت طبنة تفقد دورها كعاصمة إقليمية في المنطقة،و ظفرت بهذه المكانة في العصر الفاطمي مدينة المحمدية التي أصبحت مقرا لعامل منطقة الزّاب كلها. وفي القرن (5هـ/ 11م) ، ونتيجة لحركات البدو وهجرات بني هلال وحلفائهم زال الأمن والاستقرار من المنطقة[30] أثناء ظهور حركة الشيعة الإسماعيلية. وعليه فقد تأثرت طبنة بأبرز الأحداث التي مرت بها بلاد المغرب، وكانت عرضة للإضطرابات بفعل نشاط الخوارج وغيرها ويتجلى ذلك فيما يلي:

- دورها الاستراتيجي أثناء نشوب الأزمة بين الخلافة و الخوارج في إفريقية ،فاعتصم بها عمر ابن حفص حتى رفع الحصار وتحقيقه النصر.

- اكتسابها هيبة بفضل جهودها لمقاومة تيار الخوارج، واعتبرت في نظر أهل السنة والموالين للخلافة العباسية قلعة حصينة سياسيا ومذهبيا للدفاع عن السنة والخلافة ووحدة المسلمين وبلاد المغرب.

- مساندة سكانها لإبراهيم ابن الأغلب الأمر الذي ساعده للوصول إلى ولاية القيروان وإفريقية وأصبح مؤسس دولة عربية في المغرب الأدنى التابعة للخلافة العباسية عرفت بـ" الدولة الأغالبية في 184هـ/800 م".

- لعبت دورا في مقاومة الزحف الشيعي والذود على الدولة الأغلبية، ونصرة أهل السنة قبل أن يقتحمها الشيعة عنوة.

- ظهور دويلات انفصالية استقلالية على غرار الدولة الفاطمية التي كانت

بشكل ما ترتدي ثوب الدولة المعادية للخلافة العباسية، إلا أنّ طبنة ظلت محتفظة بعلاقتها بالخلافة حتى تأسيس ابن المهدي مدينة جديدة في الزّاب والحضنة وهي مدينة مسيلة (313هـ) وعرفت عند الشيعة باسم المحمدية نسبة إلى محمد القائم الذي أسسها[31]

- ظهور حركات البدو وهجرة بني هلال وحلفائهم من مصر إلى افريقية و المغرب أزالت الأمن والاستقرار وعمت الحروب و الفوضى و غدت طبنة مسرحا مستباحا لقبائل بني هلال[32]، فثبّتوا فيها زعامات قبلية ساهمت في القتل والفتن والصراعات، ومن قبائلها زغبة[33] وفروعها مثل "سحاري بيطام وأولاد منصورو المزاريق.

5. طبنه بين عهدي الازدهار و الذبول:

مرت مدينة طبنة بفترات فارقة عرفت أثناءها الازدهار تارة والانهيار والتراجع تارة أخرى وكان لذلك ما يبرره من العوامل والمبررات.

5.1. عهد الازدهار

انحصر في الفترة التي سبقت القرن الخامس الهجري التي عرفت خلالها مدينة طبنة استقرار سياسي ورخاء اقتصادي وازدهار حضاري وثقافي.

5.1.1. عوامل الازدهار:

تنوعت واختلفت في تأثيرها ويمكن توضيحها كما يلي:

5.1.1.1. العوامل الجيوسياسية

تمثلت في البيئة الطبيعية المتنوعة والملائمة و رتابة واستواء سهولها الواسعة على امتداد بضعة كيلومترات، توفر المدينة على سعة إيكولوجية حيث وقعت بين وادي بريكة جنوبا ووادي بيطام شمالا، وفرة مصادر المياه من أمطار وثلوج وينابيع مائية، وخصوبة التربة وتنوعها، وتسرب المياه وتنشيط سيلانها على السطح لتنساب وتنتهي بالسباخ، وهو العامل ذاته الذي ساهم في إقامة صهاريج وسدود.

5.1.1.2. -العوامل الاقتصادية

تعتمد طبنة على بيئة ثرية بالمواد الأولية النباتية والحيوانية وتنوع انتاجها الزراعي(النباتي والحيواني) حيث تتوفر على الحبوب الغذائية مثل القمح والشعير[34]وبعض المحاصيل المدارية مثل القطن، وكثرة البساتين والضيّعات الزراعية، كما أنّها ملتقى للتجارة الإقليمية و المحلية بين مختلف مناطق الزّاب والحضنة، وتمكنت من تحقيق انتشار تجارتها الخارجية وغزو بضائعها مناطق الشرق والغرب، على غرار الأندلس وسلجماسة (عاصمة بني مدرار) والقيروان.

5.1.1.3. -العوامل الاستراتيجية والعسكرية

تمتعت مدينة طبنه بموقع وأهمية حيوية، وتعتبر همزة وصل في الاتجاهات الجغرافية الأربعة، بينها وبين مدن الحضنة ونقاوس وضيعات القنطرة وامدوكال، مما سهل اتصالها بالمدن والحواضر المجاورة، كما أنّ امتدادها وراء السلاسل التلية وحواف الصحراء، حصّنها طبيعيا، يضاف له احتلالها موقعها المركزي وتحصيناتها العسكرية، وقدم الحاضرة وامتداد فترات استقرارها، والتمازج والانصهار بين عناصر سكانها ودورها في التحضر والتمدن والإبداع.

5.1.1.4. التواصل الموجود بينها وبين الحواضر المجاورة.

5.1.2. مظاهر الأزدهار

تظهر في ارتداء طبنة عباءة التطور السياسي والتمدن والتطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وهذا من خلال الأدوار المختلفة لهذه الحضارة:

5.1.2.1. المجال السياسي

- شكلت حاضرة وجزء من نوميديا (من صلدايا إلى موريطانيا الشرقية) وفي عهد الرومان كانت أهم المدن لمدينة سرتا.
- كانت مقر للحكم لفترات متعاقبة[35].

- مثلت أحد أهم المدن التي استقطبت إهتمام الحكام المتعاقبين حيث إتخذ منها حاكم افريقية بونيفاس مقرا لإقامته عام 427م.
- عودة بريقها أيام البيزنطيين (امبراطورية جوستنيان) باستفادتها من تحصينات ومدن و قلاع كغيرها على غرار سطيف، تاموقادي.

5.1.2.2. المجال العسكري:

- ظلت طبنة قاعدة عسكرية أيام الرومان وحصن كبير أيام البيزنطيين36.
- أصبحت مركز للسلطة المركزية في غرب إفريقية، والحامية العسكرية المركزية الأولى للجند أيام الحكم العربي .
- تحولت لعاصمة الأغالبة ومقرلهم ولإقليم الزّاب .
- مثلت قاعدة أساسية لمقاومة الخارجين والثائرين على السلطة الشرعية في القيروان .
- مساندة السكان لإبراهيم إبن الأغلب في تعزيز أركان الحكم.
- لعبت دور في مقاومة الزحف الشيعي ونصرة أهل السنة.
- بقاء طبنة صامدة حتى تأسيس المدينة الجديدة " مسيلة " 313 هـ المعروفة بالمحمدية .

5.1.2.3. المجال الثقافي و العلمي :

- تحول المدينة إلى مركز إشعاع حضاري وثقافي وتعليمي.
- بروز شعراء و أدباء تغنوا بهذه المدينة وحضارتها ووصفها.
- بروز نخبة من العلماء والفقهاء وهم أصحاب قامات كبرى كل في مجاله منهم :
- ابراهيم بن الطبني وهو شريك في قضاء القيروان37.
- عبد الله بن الطبني ونبغ في الفقه الإسلامي (المذهب المالكي).
- أبو مضر محمد بن حسين الطبني هو شاعر و أديب وناقد انتقل من طبنة إلى الأندلس.
- علي بن منصور الطبني وأشتهر في الحديث.

- أبو الفضل عطية بن علي و كان شاعرا مجيدا .
- أبو مراوي عبد الملك بن زيادة الطبني38 وهو شاعر وأديب.

5.2. عهد الذبول و الاندثار

نقصد به فقدان طبنة لبريقها وانهيارها ، وهي الحاضرة التي قيل عنها أنّه لا وجود بين القيروان وسجلماسة لمدينة أكبر منها و من الواضح أنّ عهد الدولة الشيعية هو بداية التراجع الحقيقي لدورها السياسي والعسكري ، و انتقلت حمى الإنهيار إلى المجالين الاقتصادي والثقافي ، ويمكن القول أنّ نهاية عهد الذبول و الانهيار، هو أيضا دخول في مرحلة الإندثار والزوال ،فكيف لا؟ ،وقد أصبحت بمطلع القرن الخامس الهجري تعيش على الهامش، حتى أصبحت الكتابات التاريخية لا تذكرها إلا في السياق العام و نسيت دورها بل و تناست هذه المحطة الفارقة من التاريخ الوطني كعاصمة لدولة الأغالبة البارزة وقد لعبت أدوار محورية عبر العصور المتعاقبة. و كان لهذا التراجع والاندثار الذي يهدد أثرها المادي والتاريخي، ما يبرره من العوامل السياسية والاجتماعية و الطبيعية و أبرزها:

- التأثير السلبي للاستعمار المتعاقب على هذه المدينة وحضارتها وتاريخها خاصة أيام الوندال ، حيث كان المحتل و سيظل الأداة الأولى لهدم الحاضرة و الحضارة معا.
- الحروب المختلفة للقبائل القاطنة بمنطقة طبنة والتي حركها الصراع المذهبي تارة والرغبة في التحرر تارة أخرى وهكذا كانت الحروب عاملا حاسما ومدمرا[39].
- دخول المنطقة في أزمات اقتصادية فانتشرت حالات المجاعات والأمراض[40].
- الهجرات الهلالية التي أثرت على المدينة حتى صارت المدينة مجموعة من الأنقاض غطاها الركام[41].
- سيادة الفوضى والفتن والهجرة الخارجية وتراجع عدد سكانها.

الخاتمة :

كانت طبنة الحاضرة التي لعبت أدوارا عبر العصور وتبرز تجليات ذلك فيما يلي:

-تميز طبنة ببيئة متنوعة أهّلتها أن تكون المدينة و الحصن الاستراتيجي خلال العصرين القديم والوسيط أيّ المغرب القديم والاسلامي.

-أنّ ميلادها تزامن مع أواخر القرن الأول قبل الميلاد وامتد دورها حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

- إستحقت بهذا الدور المحوري لأن تكون أهم منشأة عسكرية رومانية وأن تتحول بعدها إلى حاضرة أقليم الزّاب وعاصمة بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري.

-تفردها بدور استمر عهود وكانت الفترة الإسلامية أبرزها قاطبة.

-أنجبت نخبة من الفقهاء والقضاة والعلماء وساهمت في الحياة الثقافية في إقليمها وخارجه(المشرق والمغرب والاندلس).

–أنّ عمليات الغزو الأجنبي المتتالية والهجرات الهلالية التي عرفتها، قد أثّرت على استقرارها وأضرّتها وأدخلتها دوامة الفوضى وعجّلت بإنهيارها.

-أنّ طبنة قد مرت بعهود حاسمة ومفصلية أدركت خلالها فترة الازدهار تارة وفترة الذبول تارة أخرى وكان لهذا وذاك ما يبرره من العوامل المؤثرة.

وإذا كان هذا الدور والأحداث التي عرفتها طبنة قد صنّفت في سياق ماضي طبنة ،فإنّ اليوم هو حاضرها وغدا مستقبلها وآفاقها ،وعليه فالأمر يستدعي حاجتها إلى البحث والتنقيب والكتابة للتعريف بتراثها الثقافي والحضاري واستظهارهما ، حتى لا يقبر تاريخ المدن الجزائرية وتندثر معه آثارها وأدوارها الحاسمة في مراحل متباينة من حياة الأمة وذاكرتها الوطنية.

المصادر والمراجع

1. - ابن خلدون ،كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني ، المجلد 6 ، بيروت.

2. - اليعقوبي ، أحمد ابن أبي يعقوب، كتاب البلدان ، ليْدنْ ، 1892 .

3. أسامة الطيب جعيل ، طبنة حاضرة إقليم الزاب والمغرب عبر العصور، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية ،العدد02.

4. -أسامة الطيب جعيل ، دراسة تاريخية ،أعلام طبنة في العصر الوسيط، من هنا وهناك.

5. -الطيب أبوسعد، دور علماء طبنة في العصورالإسلامية،مجلة الوحات للبحوث والدراسات،العدد3، 2008.

6. ابن حوقل،كتاب صورة الأرض، نشر ج. ه. كراموس، ط 2، ليدن، هولندا، 1938، ص59، انظر أيضا اسماعيل العربي، العمران والنشاط الاقتصادي.

7. أبو الفرج اليعقوبي، كتاب البلدان، ط 1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1988

8. إسماعيل العربي، العمران والنشاط الاقتصادي فيالجزائر في عصر بني حماد، مجلة الأصالة، العدد 19، مارس - أفريل 1974 ، الجزائر.

9. أبو عبد االله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تحقيق وتقديم اسماعيل العربي، د. ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

10. أبو عبد االله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، نشر الأب دوسلان، د. ط، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، 1957.

11. أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، المطبعة العربية في الجزائر ، الجزائر ،1950، ص 16

12. الإدريسي : نزهة المشاق في اختراق الافاق ،ط 1 ، عالم الكتب ، بيروت 1989.

13. راؤول فرانج ، جنرارل فرنسي زا رطبنة عام 1901 .

14. ليلى مرابط ، موقع طبنة الأثري ، رسالة تحضيرية للماجستير ،معهد الآثار، جامعة الجزائر ،1992 .

.15 Algerie , atlas historique , geographique et economique , - Paris 1934 .

.16 Despose ; J ; Le Hodna. Algerie . Paeis.1953. . -

.17 Gell , st ,Atlas archeologique de l'Algerie , Tome I ,Algerie - , Paris, F °37

.18 Pluve l'Ancien-Histoire Naturelle,livre VI46;texte èstabli - tradui par jehan Dessanger.

.19 .Encyclopedie de l'Islam , Tome IV , Paris , 1934

.20 Grange . R . Monographiet de Tobna (Thubunae) in Recueil des notices et meeoires arclelogieque du departement de constantine. 1901.

.21 Pringle (D) , the defense of Byzantine ÃFRICA . From Justian to the arab Conguet ,

[1] Pluve l'Ancien-Histoire Naturelle,livre VI46;texte èstabli tradui par jehan - Dessanger.

[2] ليلى مرابط ، موقع طبة الأثري ، رسالة تحضيرية للماجستير ،معهد الآثار، جامعة الجزا~ر 2، 1992 ص 2 -5 ،ينظر إلى :

[3] Pringle (D) , the defense of Byzantine ÃFRICA . From Justian to the arab Conguet ,P247

[4] Despose ; J ; Le Hodna. Algerie . Paeis.1953.pp6-7 .

[5] Grange . R . Monographiet de Tobna (Thubunae) in Recueil des notices et meeoires arclelogieque du departement de constantine. 1901.p3

[6] Encyclopedie de l'Islam , Tome IV , Paris , 1934, P 847

[7] Algerie , atlas historique , geographique et economique , Paris 1934 , P29

[8] Gell , st ,Atlas archeologique de l'Algerie , Tome I ,Algerie , Paris, F °37,P1

[9] ليلى مرابط ، الرجع السابق ، ص 3

[10] Des . pois , (J) , et raynal (R) , CP. Cit . P 189

[11] الإدريسي : نزهة المشاق في اختراق الافاق ،ط 1 ، عالم الكتب ، بيروت 1989 ، ص 263

[12] ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص85

[13] راؤول فرانج ، جنرارل فرنسي زا رطبنة عام 1901

[14] البكرى ، ج 2 ، المصدر السابق،ص 712

[15] المدني : المرجع السابق ،ص 32 – 33

[16] اليعقوبي ، أحمد ابن أبي يعقوب، كتاب البلدان ، ليْدنْ ، 1892 ، ص 350-351

[17] ابن خلدون ،كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني ، المجلد 6 ، بيروت ، ص 200

[18] أبو الفرج اليعقوبي، كتاب البلدان، ط 1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1988، ص 11، ينظر إلى: إسماعيل العربي، العمران والنشاط الاقتصادي فيالجزائر في عصر بني حماد، مجلة الأصالة، العدد 19، مارس - أفريل 1974 ، الجزائر،ص366

[19] أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، نشر الأب دوسلان، د. ط، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، 1957،ص ص50-51.

[20] نفسه، إسماعيل العربي، المدن المغربية، ص 175.

[21] أبو عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تحقيق وتقديم اسماعيل العربي، د. ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 ، ص 164.

[22] ابن حوقل،كتاب صورة الأرض، نشر ج. ه. كراموس، ط 2، ليدن، هولندا، 1938، ص59،انظر أيضا اسماعيل العربي، العمران والنشاط الاقتصادي، ص 337.

[23] -شنيتي محمد البشير،المرجع السابق،ص166

[24] نفسه

[25] موسى لقبال،المرجع السابق،ص88

[26] أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، المطبعة العربية في الجزائر ، الجزائر ،1950، ص 16

[27] ابن عذاري ، المصدر السابف ، ص 54

[28] الطيب أبوسعد، دور علماء طبنة في العصورالإسلامية،مجلة الوحات للبحوث والدراسات،العدد3، 2008،ص 7 ومابعدها

[29] الطيب أبوسعد، المرجع السابق،ص 8 ومابعدها

[30] بوسعد،المرجع السابق،ص 3.

[31] بوسعد،المرجع السابق،ص4

[32] بوسعد،المرجع السابق،ص4

[33] بوسعد،المرجع السابق،ص4

[34] بوسعد،المرجع السابق،ص2

[35] شنيتي محمد البشير،المرجع السابق،ص166

[36] جعيل أسامة الطيب، طبنة حاضرة إقليم الزاب والمغرب عبر العصور، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية ،العدد02،ص ص358-404

[37] أسامة الطيب جعيل ، دراسة تاريخية ،أعلام طبنة في العصر الوسيط، من هنا وهناك.

[38] أبوالحسن علي ، الذخيرة في محاسن أهل الحيرة،المصدر السابق،ص 537

[39] بوسعد، المرجع السابق،ص10

[40]

[41]